ما غرك بربك الكريم

"يا أيها الإنسان"..نداءٌ ربانيّ تكرر في كتاب الله –عز وجل– مرتين لا ثالث لهما.

الأولى في سورة الانفطار: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾. والثانية في سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

وسنقف في مقامنا هذا مع النداء الأول في مطلع سورة الانفطار، حيث يقول الله –عز وجل–: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، هذا متى يكون؟ يكون يوم القيامة. حينها: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

يأتي العبد المسكين الضعيف في ذلك اليوم العظيم المهيب، وهو يعلم ما قدم من خير وشر، وما أخر من ذلك. وبعد هذه المقدمة، يأتي نداءٌ بحاجة إلى طول تأمل وتفكر: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾، ولم يقل: "يا إنسان."

قال العلماء: الياء في (يا) يُنادى بها للبعيد، و(أي) للوصل، و(الهاء) للتنبيه.. وكأنها رسالة تقول: انتبه! هذا الخطاب لك أيها الإنسان من حيث أنت، سواء كنت مؤمناً أو كافراً، صالحاً أو طالحاً.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾؟ ما الذي خدعك في حق ربك؟ ولم يقل "بالله"، بل قال: "بربك"؛ والرب هو المالك، السيد، المربي، والمنعم. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. وإضافة الرب إلى كاف المخاطب (ربك) تشعرك بأنه ربك أنت، كأنه لك وحدك؛ لشدة حفاوته بك، وإغداقه النعم عليك وملائكته التي تحرسك.

ولم يقل: "ما غرك بربك العزيز"، أو "المنتقم"، أو "الجبار"، بل قال: ﴿الْكَرِيمِ﴾ إشارة إلى جوده وفضله الذي شملك. لقد تفضل عليك وأعطاك وهو الغني عنك غنىً مطلقاً، ليس

بحاجة لأحد، كما في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.. يَا عِبَادِي، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.»

ومع هذا الغنى المطلق، أغناك ورباك ونعمك، فآلاؤه ترى عليك صباح مساء. فكل من أعرض عن الله وعصاه، إنما هو مغرور مخدوع، غرر به الشيطان وأغواه.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾.. هو الخالق الذي والى عليك النعم، وسواك في أحسن تقويم، وفضلك على الخلائق أجمعين: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. كرمك بالعقل، وباعتدال القامة وحسن الخلقة.

هذا الرب الكريم الذي يتودد لعبده بالنعم والخيرات.. لماذا يغتر الإنسان بستره وكرمه؟ أليس جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ إن الواجب على المسلم أن يطيل التفكير في هذه الآية، وألا ينسى نعم الله عليه؛ فإن ذِكر النعم شكرٌ لها.

وإذا أتاك نزغٌ أو وسوسة من الشيطان تدعوك لمعصية، فتأمل: بأي شيء ستعصي؟ ستعصيه بشيء وهبك إياه! تعصيه بالعين وهو الذي رزقك الإبصار، وتمشي للمعصية برجلين هو من منحك إياهما. إن المسلم إذا استحضر هذا النداء، انزجر واستحيا من ربه أن يستعين بنعمه على معاصيه.

نسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يعصمنا وإياكم من كل ما يسخطه، وأن يجعلنا وإياكم من عباده الصالحين، وحزبه المفلحين، وأوليائه الصادقين.